الأخلاق والسير في مداواة النُّفُوس

لابن حزم الظاهري[1]

أبي الفداء سامي التوني[2]

كتاب "الأخلاق والسِّيَر في مداواة النفوس" كتابٌ صغير الحجم، غني المادة، ثمين القيمة، بَثَّ فيه ابن حزم الظَّاهِرِيّ من خلاصة تجربته في الحياة وخبرته بالناس بعد طول معاناة معهم وبهم، صاغه في عبارات بليغة حكيمة، وجيزة، يسهل حفظها، وتستوقف الذهن لتأملها، تتعلق بالعقل والعلم والحكمة وأخلاق الناس وطباعهم، وكوامن النفس ودوافعها، وأهواء الناس وأحوالهم.

وإنه ليبدو للمتأمل أنَّ ابن حزم كتب هذا الكتاب في أخريات حياته بعد أن استخلص من تجاربه عبر الأيام وعِظَات الدَّهر، وأَطَاف بروحه في عوالم مِن الحكمة فَعَزَفَت نفسه عن الدنيا وتاقت إلى لقاء الله.[3]

افتتح ابن حزم كتابه بقوله:

"... فإني جَمَعْتُ في كتابي هذا معاني كثيرة أفادنيها وَاهِب التمييز تعالى، بمرور الأيام وتعاقب الأحوال بما منحني عز وجل من التهميم بتصاريف الزمان والإشراف على أحواله حتى أنفقتُ في ذلك أكثر عمري وآثرتُ تقييد ذلك بالمطالعة له والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس ..."[4]

---

[1] هو: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب، الفارسي، الأندلسي، القرطبي، الظاهري، أبو محمد، المعروف بابن حزم الظَّاهِري (384 هـ/ 994 م - 456 هـ/ 1064 م)

فقيه (ظاهري المذهب)، أديب، أصولي، محدث، حافظ، متكلم، مشارك في التاريخ والأنساب والنحو واللغة والشعر والطب والمنطق والفلسفة وغيرها. ولد بقرطبة، وكانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة وتدبير المملكة. رووا عن ابنه الفضل أنه اجتمعت عنده من تأليف أبيه نحو 400 (أربعمائة) مجلد، في نحو 80.000 (ثمانين ألف) ورقة. وكان يقال: "لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان.

من آثاره: "الإحكام في أصول الأحكام"، "جمهرة أنساب العرب"، "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، المحلى بالآثار في شرح المحلى بالاختصار"، ...

وقد نشرت مجموعات من مؤلفات تحت أسماء: "رسائل ابن حزم الأندلسي"، وتضم 17 رسالة له، "خمس رسائل في جوامع السيرة"، الرسائل الخمس"، "جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى"، ...

[2] باحث متفرغ للتحقيق العلمي لكتب التراث samy_amz@hotmail.com 2

[3] مستفاد من مقدمة الأستاذ عبد الرحمن عثمان لتحقيق الكتاب.

ويدور أول فصول الكتاب: "مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق الذميمة" حول فضل العقل والمعرفة على سائر اللذات وأن الناس يدورون حول مطلب رئيس هو دَفْع الهَمّ وطلب السَّعَادة، وهو ما لا يتحصل إلا بالعمل لله تعالى.

ومن كلماته الحكيمة في هذا الفصل قوله: "لا تبذل نفسك إلا فيما هو أولى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل"،[5] وقوله: "باذِل نفسه في عَرَض دنيا كبائع الياقوت بالحَصَا."[6] ثم تحدث عن (بابٍ عظيم من أبواب العَقْل والراحة) هو أن لا يلقى المرء بَالاً لكلام الناس وإنما يجعل همه ربَّه، فلا يبلغ أحدٌ رضاء الناس أبداً.

ثم عقد فصلاً في (العلم) تحدث فيه عن فضل العلم وفائدته، وضرورة الاهتمام بأعلى العلوم قبل أدناها، ونشر العلم عند أهله، وعدم البُخْل به، وأهمية أن يختار طالب العلم ما يناسب ميوله. ومن حكيم قوله في هذا الفصل: "نشر العلم عند مَنْ ليس من أهله مُفسِدٌ لهم، كإطعامك العسل والحلواء مَن به احتراق وحُمَّى، وكتشميمك المِسْك لمن به صداع من احتدام الصفراء"،[7] وقوله: "لا آفة على العلوم وأهلها أضرّ من الدخلاء فيها وهم مِنْ غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويُفسدون ويظنون أنهم يصلحون."[8]

ثم عقد فصلاً (في الأخلاق والسِّيَر) تحدث فيه في عبارات حكيمة وآراء مُجَرَّبَة تتعلق بأخلاق الناس وطباعهم، ومن بليغ ما قال فيه: "أبلغ في ذمك من مدحك بما ليس فيك، لأنه نبه على نقصك، وأبلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك لأنه نبه على فضلك، ولقد انتصر لك مِن نفسك بذلك، وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة"،[9] وقوله: "لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً."[10]

---

4 مداواة النفوس ص11: 12 تحقيق: عبد الرحمن عثمان

5 ص19

6 ص19

7 ص26

8 ص27

9 ص38: 39

10 ص39

ثم في فصل (في الإخوان والصداقة والنصيحة) جاء بعبارات حكيمة ثمينة، منها قوله: "استبقاك من عاتبك، وزهد فيك من استهان بشأنك"،[11] وقوله: "لا تصاهر إلى صديق ولا تبايعه، فما رأينا هذين العملين إلا سبباً للقطيعة، وإن ظن أهل الجهل أنَّ فيهما تأكيداً للصلة فليس كذلك، لأن هذين العقدين داعيان كل واحد إلى طلب حظ نفسه، والمؤثرون على أنفسهم قليل جداً."[12]

وفي نظرة فلسفية تجريدية يؤكد حديث ابن حزم في الفصل التالي (في أنواع المحبة) على كون المحبة كلها (بكافة أنواعها: محبة الله، ومحبة الأب والابن والقرابة والصديق والسلطان وذات الفِرَاش، ومحبة المحسِن والمأمول والمعشوق) من جنس واحد، ويمضي بعيداً في تقرير ذلك وتوكيده، ثم يتحدث عن البغض والغيرة ودرجات المحبة.

ثم يمض ابن حزم في كتابه ليعالج كيفية مداواة المرء الأخلاق الفاسدة.

والحق أن الكتاب –على صغر حجمه حمل مع الأفكار والخواطر والتجارب والفوائد الكثير المتعلق بالنفس والأخلاق، والناس ومعاملتهم وطباعهم، "يشع من حلاوة معانيه وسلاسة ديباجته وتقارب مقاطعه، واضح ميسر، يتميز أسلوبه بالصفاء والرقة، أطال فيه ابن حزم الوقوف وأمعن النظر في نفوس البشر، راح يتغلغل ببصيرته في خفاياها، ويسري بفكره في ثناياها، يدخل بحِسِّهِ من خالجة إلى خالجة، ويخلص من كلٍّ بظاهرة ونتيجة، ويكشف من أعماقها عن داء ثم دواء، فيبدع لكل وصفا ويوجزه."[13]

وفي الكتاب من الأقوال ما يعكس حال الناس في عصره، وفي بلاد الأندلس خاصة، وفيه أيضا من الألفاظ والعبارات والأساليب ما يعكس لغة عصره، وهو ما يفيد منه دارسي اللغة وتطورها، وقبل ذلك فإن ما فيه من معلومات ضافية متعلقة بالنفس وطبائع الناس والأخلاق ومعاملة الصديق والحاقد والعدو الشيء الكثير إلي يفيد المهتم بهذا المنحى من الدراسات، كما أن فيه من الحديث عن فوائد التعليم وقواعده وأصوله ومراعاة المتعلم لاستعداده وحاله ومراعاة المعلم للمتعلم وميوله عبارات وشذرات وجيزة لكنها هامة ومفيدة.

---

11 ص40

12 ص54

13 مقدمة تحقيق عبد الرحمن عثمان للكتاب ص7: 8

وقد ضمن ابن حزم شيئا من سيرته الذاتية قد لا يجدها الباحث في غيره،[14] كما ضمنه بعضاً من شعره،[15] وهو ما يفيد المهتمين بدراسة ابن حزم.

ولقد وقع الخلاف في اسم الكتاب على صور عدة هي: "الأخلاق والسير" و"الأخلاق والسير في مداواة النفوس" و"رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل" و"مداواة النفوس"، والأول ما سماه به القدماء، ولعل الثاني تمام الاسم الأول، وانبنى على هذا الخلاف اختلاف اسم الكتاب ففي طبعاته المختلفة التي صدر بها، فقد نشره د. إحسان عباس ضم باسم (رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل) ضمن مجموعة: "رسائل ابن حزم الأندلسي"، الذي طُبع بمكتبة الخانجي بالقاهرة، ومكتبة المثنى، بغداد فكان هو ثامن هذه الرسائل، وشغل الصفحات (1 / 115: 173)، حققها وعلق عليها وقدم لها د. إحسان رشيد عباس (كلية الخرطوم الجامعية)، كما طُبع باسم "رسالة في مداواة النفوس"، ضمن مجموعة "رسائل ابن حزم الأندلسي" بتحقيق: إحسان عباس، طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عام 1983، والتي صدرت في أربعة مجلد، كان كتابنا هذا ثاني رسائله، في الجزء الأول منه.

كما طبع باسم "الأخلاق والسيرة في مداواة النفوس" بمطبعة السعادة بالقاهرة، 1921، في 106 صفحة،[16] وحققه عبد الرحمن محمد عثمان مقابلا على ثلاثة طبعات قديمة، ليصدر عن المكتبة السلفية بالمدينة المنورة في 127 صفحة (وقع فيه النص بين صفحتي 11: 127). وللكتاب نسخة إلكترونية بعنوان "الأخلاق والسير في مداواة النفوس" ضمن أسطوانة (مكتبة البيت المسلم) للتراث، عن طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت. كما نشره مع ترجمة فرنسية: لندي توميش.[17]

---

14 أشار ابن حزم ص92: 93 إلى سبب ما يعتريه م حدة في اللفظ والعبارة، وأن سبب ذرك مرضي، وهو ما لا نعلمه صرح به في غير هذا الكتاب

وانظر أيضاً تعليق طاهر الجزائري في توجيه النظر 103/1

15 ص69: 70

16 عايدة نصير: الكتب التي نشرت في مصر 1900: 1925 ص109 رقم 2102/2

17 حمادة، محمد ماهر المصادر العربية المعربة، ص90.